الفصل الأول

الرحلة إلى مكة

بعد أن سلمنا أمتعتنا المتواضعة لكي تشحن إلى جدة، بعد انتظار طال في الدَّوْر بمطار الدار البيضاء، فوجئنا بموظف الخطوط الملكية المغربية يخبرنا، من دون مقدمات، أن علينا أن نختار بين العودة إلى الرباط، بما يعنيه ذلك من أنه يتعين علينا أن نقطع مسافة ١٢٥ كيلو متراً، أو أن نمضي وقتنا في الدار البيضاء.

كانت هذه هي الطريقة التي رأى أن يخبرنا بها أن طائرة الجامبو التابعة للخطوط الجوية السعودية لم تصل إلى داكار بعد، إذ هي في طريقها إلى الدار البيضاء.

كان هذا الأمر كفيلاً، في ظروف عادية، باستفزاز الركاب وإثارة غضبهم. أما في هذه الظروف، وكل الركاب من الحجاج، وغالبيتهم من النساء القاصدين مكة لأداء فريضة الحج، فإن الأمر يختلف، لأن القرآن الكريم[1] يعلمهم قائلاً: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٧]. ومعنى ذلك أن على الحاج أن يتحلى بالصبر، وأن يتفادى الدخول في خلاف أو حتى الشروع فيه. ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصاً أو شيئاً، أو أن يقتلع نباتاً، أو يقتل حتى بعوضة.

---

(١) Koran، هي الكتابة الصوتية للكلمة العربية: قرآن (الذي يقرأ). والكلمة تنطق في مقطعين منفصلين. ويتكون القرآن من ١١٤ سورة، وما يزيد على ٦٠٠٠ آية، وهي مجمل الوحي الإلهي الذي تنزّل على الرسول محمد، منذ عام ٦١٠م حتى وفاته في عام ٦٣٢م. ولا يتطابق الترتيب الزمني لنزول الآيات مع الترتيب الذي نقرؤه اليوم في القرآن. فترتيب آيات القرآن تم تحديده في شكله النهائي -الذي بين أيدينا اليوم- عام ٦٤١م.

لهذا السبب، بقيت الأمور هادئة، في إطار من السلوك المتحضر. وانتهى الأمر بتأجيل سفرنا من مساء يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٩٢م، إلى صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من ذلك، فإن أياً من الحجاج لم يرغب في مغادرة مطار محمد الخامس؛ فمن ذا الذي يجازف بتعريض نفسه لاحتمال التخلف عن أهم رحلة في حياته، ولاسيما أنه كان قد ودَّعه أقاربه وأصدقاؤه؟! واستعادوا إلى الذاكرة أن رحلة المغربي إلى الأماكن المقدسة بالحجاز كانت تستغرق في الأزمنة السالفة حولاً كاملاً، ناهيك عن أنها كانت تعني للكثيرين رحلة بلا عودة!!

لم يكن أحد ليرغب في العودة إلى الرباط، قبل أن يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله بمكة[1]، ويعود مسلماً حاجاً.

وعند صلاة العشاء، يتحول مطار الدار البيضاء بصالة السفر وصالة كبار الزوار إلى مسجد كبير ممتد الأركان. ويتكرر هذا الأمر مرة أخرى عند صلاة الفجر.

وتقوم امرأة من الريف برعاية زوجها الكفيف بشكل مؤثر. أما هو فمستغرق في الصلاة على نحو يحتذي به البصير!

ونحاول في تلك الأثناء، والشحوب يكسو وجوهنا والكلام يندر بيننا، أن نحصل على شيء من الطعام من مطعم المطار.

(١) الحج: كلمة عربية تشير إلى الرحلة المقدسة الكبرى إلى مكة وما حولها. والحج فريضة يجب على المسلم القادر أداؤها مرة واحدة في حياته، وذلك في ميقات محدد، هو شهر ذي الحجة، أي الشهر الثاني عشر من الشهور القمرية العربية. أما العمرة، فهي رحلة إلى الأماكن المقدسة في أي وقت من العام. ويمكن كذلك أداء العمرة مع الحج في الوقت نفسه. ويقوم غالبية الحجاج والمعتمرين بزيارة مسجد الرسول في المدينة.

على المنضدة التي كنت أجلس عليها كان شاب سعودي يجلس. تحدث من دون مقدمات، فقال: أتعرض في سفرياتي لإغراء احتساء الخمر، ولكن يمنعني عنه ما تحدثني به نفسي: إنك من أهل مكة!

وأتذكر بعضاً من الذين حادوا عن جادة الحق، وأتمنى أن يسلكوا مسلك هذا الشاب، وأن يفرض عليهم انتماؤهم إلى مكة نوعاً من الالتزام.

أخيراً، وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز بوينج ٧٤٧ متجهة إلى جدة، مروراً بداكار، عبر كل من صحاري ليبيا الشاسعة والسودان.

وبدلاً من الموسيقى «المخدرة»، التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة آيات من القرآن الكريم.

في داكار، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج، بينهم مختار ديوري نجل الرئيس السنغالي ضيوف. وننظر إليهم، فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج، تشع وجوههم سعادة واطمئناناً.

تقترب رحلة الطائرة من نهايتها، ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة، وهي منطقة لا يدخلها الحاج، حتى وإن كان محلقاً في الفضاء، إلا بملابس الإحرام.

كان هذا الإعلان بمنزلة تنبيه لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه، لكي يرتدي ملابس الإحرام. ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال، وتلألأت ببياض مبهر!

فالنساء جميعاً يرتدين ملابس بيضاء، تغطي معاصمهن وأقدامهن، ويضعن على رؤوسهن أغطية رأس بيضاء، في حين يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء، طولها ١٨٠ سنتيمتراً، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر.

لم أبدل ثيابي، لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولاً إلى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم أقوم بعد زيارته بالشروع في مناسك الحج قبل التوجه إلى مكة.

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي، وقد حصلت عليه من سوق سالي، مدينة القراصنة القديمة، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى. وكل متاع الحاج قطعتا قماش، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية)، وحزام عريض من الجلد، غير مخيط وإنما مبرشم لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التي يستخدم أحدها لحفظ جواز السفر، والثاني لحفظ تذكرة الطائرة، والثالث لحفظ بعض الأدوية. وكنت قد أحضرت معي، عملاً بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) وآلام الأسنان، واضطرابات المعدة، والإسهال والقيء، وارتفاع درجة الحرارة، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة، ومصل للوقاية من الالتهاب السحائي. وكان معي أيضاً، بالإضافة إلى ما تقدم، زوجان من «النِّعال» غير مخيطين، صنعهما بناءً على طلبي ولصقهما وضفرهما إسكافي شبه كفيف في سوق سالي. ويبدو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته في صناعة أحذية الحجاج وتزويدهم بها، غير أنه -على ما يبدو لي- لم يعد متمكناً من حرفته. فعند انصرافي من أمامه، أومأ لي أحد جيرانه، وأخذ مني زوجي النِّعال، وقام في صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئاً، بإصلاحهما من دون مقابل.

تمكن قائد الطائرة من الهبوط في المطار الصحيح بين مطارات جدة الخمسة. فهذا المطار يبدو- على الرغم من كونه بناء أسمنتياً- كأنه مدينة خيام تنساب سابحة فوق الرمال.

تعهدني منذ وصولي- كما تعهد غيري- مطوف يضطلع بمسؤولية إقامتنا وانتقالاتنا، وطبعاً إرشادنا لمناسك الحج. وكان علمنا بهذا الأمر مبعث اطمئنان لنا، مع أن المرء منا كان قد حاول- فيما يشبه دراسة دينية- أن يحفظ كل ما عليه أن يفعله طبقاً لما ورد في القرآن والسنّة، حتى يتقبل الله منه [1] إن شاء الله.

في الفندق الذي نزلت به، حيث كنت أقيم تحت رعاية إدارة المراسم الملكية، التقيت مسلمين من أنحاء العالم كافة، من جزر القمر إلى واشنطن العاصمة. وكانت أحاديثنا تدور حول شيء واحد، هو الإسلام. وبفضل المناقشات الفكرية التي جرت بيننا، بدت لي رحلة الحج وكأنها جامعة متنقلة. وكان أحد من تحاورت معهم هو الشيخ محفوظ نحناح، من الجزائر. وقد قدر لي أن ألقاه أكثر من مرة في أثناء رحلة الحج.

في طريقنا إلى المطارالحربي يوم ٣١ من مايو، اندفعت قافلتنا بسرعة جنونية،

(١) للاطلاع باستفاضة على مناسك الحج والعمرة، انظر: كتاب «رحلة الحج إلى مكة» لمؤلفه أحمد فون دنفر، الصادر في ميونخ عام ١٩٨٧م، وكذلك: «الدليل إلى مكة والمدينة» من سلسلة كتاب «السفر اليوم»، مجلد ٤٩، الصادر في باريس عام ١٩٨٢م.

أما عن رحلات الحج في القرن ١٩، فيمكن الرجوع إلى كتاب: «في مكة والمدينة» لمؤلفه Johann Ludwing Burckhardt، الصادر في برلين عام ١٩٩٤م، وكذلك: «رحلة حجي إلى مكة» لمؤلفه Von Heinrich Maltzan، الصادر في توبنجن عام ١٩٨٢م، وكذلك على وجه الخصوص في كتاب: ريتشارد بيرتون الذي يحمل عنوان «قص شخصي حول رحلة الحج إلى مكة والمدينة»، الصادر في جزأين عام ١٩٦٤م في لندن ونيويورك.

مخترقة شوارع جدة، حتى إننا فقدنا إحدى سياراتنا الأجرة. وحينما وصلنا إلى المطار من قبل الموعد المحدد، كان علينا أن ننتظر ركاب سيارة الأجرة المفقودة، في جو قائظ تصل حرارته إلى ٤٠ درجة مئوية!! ألم أقل من قبل إن الصبر هو أولى فضائل الحج؟!

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠، تابعة للقوات الجوية السعودية، في رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة، إلى المدينة المنورة، التي كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ ممن اضطهدوه من المكيين، وفيها أصبح الإسلام ديناً ودولة، ووضع رسول الإسلام ﷺ أول دستور مكتوب لكيان فيدرالي - يحقق اتحاداً بين المسلمين واليهود - وفيها أكمل رسالته الخاتمة، وفيها تُوفي.

توجهت على الفور، بصحبة الشيخ نحناح، إلى مسجد الرسول ﷺ حيث قبره. ولقد أنشئ هذا المسجد بجوار مقر إقامة محمد ﷺ. ومع الحفاظ على منازله ﷺ جرى توسيع المسجد أكثر من مرة. وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع. ففي زيارتي الأخيرة، في عام ١٩٨٢م، كان هناك ٦ مآذن فقط، صارت الآن ١١ مئذنة، ومن المخطط له بناء ٣ مآذن أخرى. وفيما مضى كان المسجد يتسع لبضع مئات من المصلين، أما الآن فتبلغ مساحته نحو ٧٠٠ ألف متر، تتسع لنحو ٦٠٠ ألف مصلّ. أما أعمدته الكثيرة، فصورة مصغرة للمسجد الأموي بقرطبة. ولقد قامت إحدى الشركات الهندسية، التي يديرها مسلمون ألمان، بتزويد المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلات واقية من أشعة الشمس، يبلغ قطر كل منها نحو ١٨ متراً، تفتح وتغلق حسب سقوط أشعة الشمس، وتستدير في اتجاهها.

حينما حان موعد صلاة العشاء، ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية، اجتمع في المسجد مئات الألوف من المصلين، جاؤوا من شتى الاتجاهات.

وعندما تحاول سيارات الأجرة الأمريكية الفارهة، التي تقل بعض الحجاج، اختراق حشود المسلمين، لا تسمع كلمة غاضبة، ولا تصدر إشارة قبيحة، ولا يضرب أحد بيده على السيارة حقداً على أصحابها.

ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين مثيراً للدهشة، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسالمة الإنسان والحيوان والنبات. ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغي بعض القوانين والقواعد الاجتماعية مدة من الزمن.

كان يجاورني في الصلاة مواطن باكستاني يعمل في مصرف بالبحرين، ومواطن تركي يعمل في بوخوم. وهذا الالتقاء العالمي هو أحد أهداف الحج. وعلى الرغم من أن جوانب المسجد مفتوحة، فإننا لم نكن نتوقع أن تكون درجة الحرارة بداخل المسجد ٢٨ درجة مئوية فقط. وهو ما أثار دهشتنا التي لم تلبث أن تبددت حينماعلمنا أن المسؤولين السعوديين يمررون ماء مثلجاً تحت المسجد. ولابد أن هذا الماء يأتي من مسافة بعيدة، لأن الحرارة الناتجة عن عملية التبريد كانت كفيلة بأن تصل بهذه المدينة إلى درجة الغليان.

تمكنا عند منتصف الليل من زيارة قبر محمد ﷺ وقبري أبي بكر وعمر - أول وثاني الخلفاء الراشدين - في أقدم أجزاء المسجد، حيث كان منزل الرسول ﷺ ومقر إقامته. ها هنا مثواه، حيث دفن في حجرة زوجته عائشة، التي تحظى باحترام كبير، والمعروف عنها ذكاؤها الشديد، وإليها يرجع الفضل في وصول

عدد كبير من الأحاديث الصحيحة إلينا، في صورتها الدقيقة.

إن الوجود حيث عاش الرسول ﷺ - الذي حظي باحترام شديد دون أن يؤلَّه على الإطلاق- وحيث خطط، وعمل، ووعظ، وأحب، وعانى سكرات الموت، لأمْرٌ يستحوذ على الأنفس كلها. وفي هذا المكان، الذي يفوح منه عبق التاريخ، هزت التجربة، من الأعماق، بعض الحجاج الذين صاحبوني، فأجهشوا ببكاء حار.

وحين غادرنا المسجد عند منتصف الليل، رأيت مجموعة من نساء ماليزيا ما تزال تحتل محرابه الوقور مع بساطته. إنهن لم يشبعن من أداء الصلاة في هذه البقعة الشريفة. ولم يخطر ببال أحد - حتى من مسؤولي النظافة- أن يبعدهن، ولو بمجرد النظر إلى الساعة!

عقب انصرافنا من المسجد، شاركنا حتى صلاة الفجر في نقاش مع مجموعة من طلاب الشريعة الجزائريين في مكان إقامتهم المتواضع النظيف الذي يطلقون عليه -بحق- اسم «النهضة». وكنت قد أدركت، ونحن في الطريق إليهم، الشعبية المنقطعة النظير التي يحظى بها رفيق رحلتي. فلم يكن الشيخ نحناح يسير ٥٠ متراً دون أن يلقاه أحد الجزائريين مرحباً، ومعانقاً، وسائلاً المشورة.

في اليوم التالي، قمت بزيارة إلى البقيع - المقابر الشهيرة - حيث يرقد جثمان كثير من الصحابة وأهل بيت الرسول ﷺ، الذين وافتهم المنية بالمدينة. ومن بين من دفن هنا: السيدة عائشة، والسيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ زوجة علي وأم حفيدي الرسول ﷺ: الحسن والحسين ولا توجد هنا مشاهد مميزة للمقابر، خلافاً لما عليه الحال في طراز المرابطين في المغرب. بل إن

الأمر يختلف أيضاً اليوم عما كان عليه في عام ١٩٨٢م، حيث أمكننا آنذاك التعرف على قبر الخليفة عثمان. فالمقابر قد سويت بالأرض، ولم يعد هناك اليوم من سبيل إلى قصدها للزيارة، وإحياء ذكرى من يرقدون بها من الموتى. ويمثل هذا المنع الجذري لمظاهر التأليه استفزازاً لمجموعة من الحجاج الشيعة من إيران، وبصفة خاصة فيما يتعلق بفاطمة الزهراء.

وكان من وافاه أجله من الحجاج، يحمل إلى المسجد لتقام عليه صلاة الجنازة. ولم يكن يحزننا سوى أنهم لم يكملوا أداء مناسك الحج. ولكن أهناك موت أفضل من الموت بمكة أو في المدينة؟! أو لا يأتي كثيرون إلى هنا على أمل قضاء أيامهم الأخيرة؟! لقد كنت أدرك احتمال أن أكون بين من يُحملون إلى المسجد في مرة قادمة، لكن لم يفزعني هذا الخاطر على الإطلاق.

بعد زيارة البقيع، توجهنا إلى المسجدين التاريخيين: قباء والقبلتين، وإلى موقع معركة أحُد حيث مثوى سبعين من الصحابة، بينهم الفارس حمزة عم محمد ﷺ، وحيث مُني المسلمون الأوائل بهزيمتهم القاسية والوحيدة، بسبب ضعف الانضباط وعدم الالتزام التخطيطي، وحيث أصيب محمد ﷺ بإصابات بالغة، وتعرض للموت.

إن منطقة أحد لا تعدو اليوم أن تكون مكاناً مقفراً قاحلاً، لا زرع فيه ولا ضرع، ولا يتيح لسائح راغب في العلم أو المعرفة أن يحقق رغبته. أما المسجدان الموصوفان بأنهما تاريخيان، فبلا تاريخ، للأسف الشديد. فبسبب الخوف من أن يؤدي التقدير العظيم لما هو قديم إلى الشّرك، أعيد بناء المسجدين - دون مراعاة لمكانتيهما- على نحو طمس معالمهما التاريخية. لقد كان باستطاعتي في عام ١٩٨٢ أن أرى القبلتين في مسجد

القبلتين؛ القبلة الأولى للمسلمين الأوائل باتجاه القدس، والقبلة الثانية للمسلمين الأوائل أيضاً باتجاه مكة.

في اليوم الثالث من شهر يونيو، عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية.

وكنا قبل العودة قد زرنا أحدث مطابع العالم عند طرف المدينة المنورة، حيث يطبع سنوياً ٣٨ مليون نسخة من القرآن الكريم توزع مجاناً، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات الإنجليزية والفرنسية، وحتى الكورية، للقرآن الكريم. ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له.

عقدت النية على أداء فريضة الحج، وعلى نحو أقرب ما يكون للذي فعله الرسول ﷺ، أي أداء مناسك العمرة أولاً ثم أداء مناسك الحج. فاغتسلت وتلوت الأدعية الواجبة، وارتديت ملابس الإحرام، وبذلك أتممت استعدادي لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بمدة قصيرة. . . . مدة قصيرة؟! لقد انتظرنا ساعتين وصول السيارة التي كانت ستقلنا إلى المطار، حيث انتظرنا مدة ساعتين أخريين قبل أن تقلع بنا الطائرة. ومع ذلك لم ينبس أحد بكلمة.

انتهزت فرصة وقت الانتظار للتحدث مع مجموعة من المتخصصين في الكومبيوتر من أمريكا الشمالية، سرعان ما تبين أنهم من الشيعة. هل يمكن للمرء أن يتخيل عملاً يلقى نفوراً واستهجاناً أكثر من هذا لدى الرأي العام الأمريكي خاصة في ظل حرب الخليج الثانية؟!

على الرغم من أنني ارتديت ملابس الإحرام مدة نصف يوم عندما أديت عمرتي الأولى - الحج الأصغر - في عام ١٩٨٢م، فإنني لا أشعر بعد بالراحة من

ملابس الإحرام هذه المرة. ومع ذلك، يستطيع المرء أن يحمي نفسه من ضربة الشمس بوساطة الجزء العلوي الذي يتحرك دوماً من مكانه، كما أن نسيجها يمتص العرق، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد في الغرف المكيفة. ولكن أهم ما في الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها، يستوي في ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، أذكياؤهم وبسطاؤهم، كبيرهم وصغيرهم. ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر، ولو بمجرد الخياطة الأنظف ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوي البشر أمام الله، وإنما ترمز أيضاً إلى يوم القيامة. فلقد كنا نبدو- ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهاباً - كمن قام من الموت وما يزال يرتدي كفنه. بل إن كثيراً من الحجاج يحتفظون بالفعل بملابس إحرامهم لتكون أكفاناً لهم.

عند إقلاع الطائرة، كان بعض مسؤولي المراسم في المدينة المنورة يقفون هناك.

كل حركاتهم وخطواتهم وقورة ومحسوبة. وهم جميعاً يتمتعون بقامات فارعة، وهندام نبيل معبر ذي أنف معقوفة قليلاً، ولحى قصيرة معتنى بها بشدة. وتوحي عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشي الذهبية بجلال ملكي... أيّ تناقض بين ما هم فيه، وما نحن فيه من أكفاننا؟!

كان رفاق رحلة حجي من السنغاليين في الطائرة شديدي الحساسية تجاه العرب، الذين يعدون أنفسهم - تشبهاً باليهود- أفراد شعب الله المختار، كما هو الأمر في حالة قريش مكة وقبائل المدينة، وهم ليسوا كذلك وحدهم بطبيعة الحال. ومن جانبي، أقررت أنه لا بد للمرء من أن تدور رأسه غروراً إذا ما صادفه الحظ الأوفر مرتين في تاريخ العالم: أولاهما، عندما بعث خاتم الرسل في

الأرض العربية برسالة بالعربية. والثانية، عند ظهور بركة النفط والغاز الطبيعي...

رفض جميع من بالطائرة القبول بأن العرب ينفردون بوضع يتيح لهم وحدهم فهم الرسالة الإلهية للقرآن. فالإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية.

كان ضجيج الطائرة يجعل من مواصلة هذه الأحاديث أمراً شاقاً. ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للتلبية، التي أخذنا نرددها كما فعل كل الحجاج قبلنا منذ ١٤٠٠ سنة: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولسوف يظل هذا الدعاء يتردد على مسامعي حتى يوم عيد الأضحى، إن لم يكن مني أنا فمن شخص على مقربة مني. وكنا قد علمنا في هذا اليوم بموعد العيد، فلقد ظهر هلال شهر ذي الحجة بالليل. ومعنى ذلك أن وقفة عرفات ستكون يوم العاشر من شهر يونيو، وسيكون عيد الأضحى يوم الحادي عشر منه، حيث نصل إلى نهاية المطاف.

في الرابع من شهر يونيو، قمت برفقة وزير الشؤون الإسلامية السريلانكي وأسرته بأداء العمرة. ولقد كان انتظارنا في جدة طول مدتي ما بعد الظهر والمساء، قبل أن نغادرها إلى مكة، أمراً مفيداً، لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية. وقبيل أن نصل إلى غايتنا، عبرنا أحد الأنفاق التي شُقّت في صخور مكة المكرمة. ولكم كانت المفاجأة مذهلة، عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع!

ها نحن أولاء نقف في تقليد إبراهيمي أمام أقدم معابد التوحيد في العالم.. أمام الكعبة. والكعبة مكعب مجوف خال تماماً، مبني بأحجار ضخمة. إنها

صورة معمارية لكمال بيت الله في أبسط تصوير، بعيداً عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي وفن الروكوكو. وهي تُكْسى بمخمل أسود مطرز بآيات من القرآن الكريم بخيوط من الذهب. ويتم تغيير الكسوة سنوياً. وتقوم مجموعة من المطرزين طول العام على إعداد الكسوة في ثوب فني جميل. وفيما سلف من الزمان، كانت كسوة الكعبة تأتي من القاهرة هدية من الخديوي، وترفع الكسوة عن الكعبة في أثناء مدة الحج، حتى لا يتصور أحد أن بيت الله تحفة فنية، أو يراد له أن يكون تحفة فنية.

عند دخولنا إلى الحرم المكي، خضعنا لعملية تفتيش سريعة، للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعاً وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين.

بدأنا بعد ذلك نطوف حول الكعبة.. التي يتجه إليها مليار من البشر في صلواتهم اليومية. ولم يغب عن خاطري طول الطواف أننا نتجه في طوافنا إلى الله. وأضفت إلى الأدعية المعتادة دعاء شخصياً مفاده: «اللهم اجعل الحق يقر في نفسي، واجعل الحق حقيقتي الشخصية».

تذكرت أن هذا البيت كان في سنوات شباب محمد مليئاً بالأصنام، ومن بينها تمثالان: أحدهما للمسيح، والآخر لمريم. أي إنه كان يعكس تعدداً دينيًا اقتصادياً ناجحاً ومذهلاً، إذ كان يتطابق مع معنى أيديولوجي حديث ألا وهو «كل شيء يصلح». ولقد كانت مكة آنذاك مركزاً تجارياً عالمياً. أما اليوم، فهي مركز حج عالمي. وكانت وقتها تستقبل في الأشهر الأربعة الحرم أي إنسان، في حين لا تستقبل اليوم سوى المسلمين من أرجاء العالم كافة.

لم يكن من اليسير، والحجاج يتدافعون ويتزاحمون، أن تعي رمزاً لمكان، وأن تحتفظ في هذا الخضم الهائل بروحانية الفعل الذي لولاه لتحول الحج إلى مجهود بدني بحت. وكنت غالباً ما أدفع من نساء أناضوليات عريضات البنية، يتعلقن بأزواجهن الأقوياء الذين يقدمونهن. وهذا أمر لا يفتقر إلى الغرابة، ولا سيما أن قائد هذا التشكيل يرفع كتاب أدعية باللغة التركية، يتلو منه بإخلاص واجتهاد ولكنه أبعد ما يكون عن الطرافة، بل هو أمر يهدد الحياة نفسها إذا ما تحول المرء إلى كرة تتقاذفها هذه المجاميع التي تتصبب عرقاً. وهذه ظاهرة يعرفها المرء في ملاعب كرة القدم. ويبلغ هذا الخطر ذروته عند الحجر الأسود. فهنا يتزاحم ويتدافع الوافدون الجدد لبدء الطواف من أجل الوصول إلى الداخل، في حين يتزاحم ويتدافع من أتموا طوافهم للخروج. وهنا تتعطل الحركة وتشل، لأن العادة جرت على أن يتوجه الحاج إلى الحجر الأسود رافعاً يده مردداً: «الحمد لله». وكانت الفرصة قد أتيحت لي من قبل لتقبيل الحجر الأسود ذي الإطار الفضي القابع في أحد أركان الكعبة. ولذلك، لم يكن ملائماً أو لائقاً أن أتهكم على انبهار الحجاج بهذا الحجر النيزكي، مع أنه لا يحظى بأي أهمية أو دور في مناسك الحج. ولما كان قدماء العرب قد عبدوا آلهة من حجر، فإن الإسلام يتعامل مع توقير وتقديس الأحجار باستياء شديد، سواء أكانت بيضاء أم سوداء أم رمادية.

ويعزى الاهتمام الذي يحظى به الحجر الأسود إلى أسباب تاريخية. فلقد تعرضت الكعبة مراراً لأعاصير. ومن رأى تحول الوديان الجافة في شمال إفريقيا والشرق الأدنى إلى أنهار تجرف في طريقها كل شيء، لا يُدهش من ذلك. وفي أثناء ذلك، كان الحجر الأسود الذي لا ينفع ولا يضر هو الأثر الوحيد الباقي من مدة ما قبل الإسلام. وهو بإيجاز أقدم أجزاء الكعبة. ناهيك عن أن محمداً ﷺ

شخصياً هو الذي وضعه حيث هو اليوم. فعند إعادة بناء الكعبة، تنازع أشراف مكة على شرف وضع الحجر الأسود في موضعه القديم. وقام محمد ﷺ بحل نزاعهم، عندما اقترح وضع الحجر الأسود في ثوب يمسك بأطرافه جميع أشراف مكة لرفعه، ليقوم هو -الحكم المحايد- بوضعه حيث هو الآن. ولذلك فإن من يلمس هذا الحجر يتصل اتصالاً مادياً بالرسول ﷺ، وينضم مثل ملايين سبقوه في سلسلة متواصلة. ولم يكن هذا الأمر لرفاقي في الحج إلا مصدراً لإلهام رمزي.

أفقت من تداعي أفكاري وخواطري مذعوراً على مشهد امرأة محمولة، فاقدة الوعي. وكانت، ككل الماليزيات المنظمات بطريقة مثلى، تثبت ألوان علم بلادها وبياناتها الشخصية على قطعة من قماش تضعها خلف غطاء رأسها، ليسهل معه التعرف عليها. ولم تكن هذه أول امرأة تلقى حتفها بسبب الزحام في أثناء الطواف.

وعلى الرغم من هذا الزحام الشديد، كانت هناك عجائب وآيات من التسامح والرحمة. فلقد مررت لتوي بحاج سعيد يطوف حول الكعبة على عكازين، يمنعه كبرياؤه- وربما يمنعه فقره -من أن يحمله أحد الزنوج الأقوياء، أو يدفعه أحد على كرسي متحرك، ويحيطه الحجاج بالعناية والحذر حتى لا يقع. واسترعى انتباهي أيضاً مشهد مجموعة من الحجاج يخرون على الأرض سجداً وسط فيض من الحجاج. ولقد كدت أقول لهم: أيُّها الحجاج، هل يتحتم فعل هذا الذي تفعلون؟! ولكني لم أقلها.

في وجود هذا العدد الغفير من الحجاج، يحتاج الطواف حول الكعبة سبعاً إلى نحو الساعة أو مايزيد. ولحسن الحظ كانت الليلة باردة بعض الشيء، لأنه إذا ما تعرض إنسان وسط أوربا لأشعة الشمس المباشرة -وهي في أوجها - لمدة ساعة

واحدة، فلا بد من أن يفيق ليجد نفسه في إحدى وحدات العلاج المتخصصة في علاج المصابين بضربة الشمس.

بعد أن أتممت الطواف شربت ماء زمزم، فأحسست بالانتعاش بكل ما تحمله الكلمة من معان، وعقدت العزم على حمل ٢٠ لتراً منه إلى الرباط، ليرتشف الأصدقاء والخدم رشفات منه، وكأن هذا الماء يماثل الذهب في قيمته. وهكذا يتحقق التواصل مع مكة مادياً.

حان الوقت لأداء ركعتين في مقام إبراهيم. وهذا الموقع القريب من باب الكعبة، والمذكور في القرآن الكريم، يذكرنا بأن الكعبة بناها أبو الساميين جميعاً، ومعه ابنه -من زوجته الثانية هاجر - إسماعيل أبو العرب. وكان إبراهيم يتردد على أسرته العربية، التي كان قد أسكنها في مكة قبل ذلك بسنوات عديدة، بعد أن صارت زوجته سارة - التي رزقت في سن متقدمة بأبي اليهود إسحاق- لا تقبل بوجود غريمتها (ضرتها) معها.

كان البعض، حتى من المسلمين، يميل إلى رؤية هذه الرواية، التي وردت في القرآن والتوراة، باعتبارها أسطورة حسنة. وكان لا بد من أن ينشر كمال صليبي، وهو أستاذ بروتستانتي، كتابه «لقد أتت التوراة من عسير»، ليقتنع الناسُ حتى أولئك المسلمين أن القبائل اليهودية استوطنت غربي أرض العرب، وبالتحديد إقليم عسير الواقع بين الطائف واليمن، حتى عام ٥٠٠ قبل الميلاد.

في أثناء بحثي عن مكان لأداء الصلاة، التقيت كلاً من زميليّ: سفير غينيا في

الرباط، ومفتي لبنان. وكانت لهما الرغبة نفسها، والمشكلة ذاتها. وعثرت أخيراً على مكان بجوار مجموعة من الحجاج التركمان أو المغول الذين يأخذون قسطاً من الراحة في الجزء المسقوف من المسجد، حيث يقرأ بعضهم القرآن، ويتناول بعضهم شيئاً من الطعام، في حين نام آخرون في انتظار أذان الفجر. ومع ذلك، تابعت السير مسرعاً لأسعى سبعاً بين الصفا والمروة، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾[**البقرة**:١٥٨].

وللتذكرة، جرى هذا السعي في واقع الأمر من أجل العثور على بئر زمزم. فالرواية تَروي أن السيدة هاجر وجدت نفسها في عناء وبؤس شديدين، بعد أن تركها إبراهيم مع طفلها الصغير إسماعيل في الوادي المقفر﴿ **بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** ﴾ [**إبراهيم**: ٣٧] بمكة. وراحت هاجر تسعى بين الجبلين بحثاً عن الماء. وعندما عادت منهكة بائسة لتضم طفلها إليها، كانت المشكلة قد حُلَّتْ، فلقد كان إسماعيل يلهو وسط نبع ماء، هو اليوم بئر زمزم. وإحياء لذكرى هذا الحدث، بما يدل عليه من رعاية الله ورحمته، كان السعي الذي يصبح في ظروف الحج مشقة بدنية، ولا سيما أن المرء يقطع بعض أجزاء الطريق مهرولاً. وعندما وصلت، منهكاً غير بائس، إلى بئر زمزم لأنهل منها مرة أخرى، لم أغفل عن الرمز الذي تنطوي عليه هذه الشعيرة.

أستطيع الآن أن أقصَّ شعري، منهياً الجزء الأول من حجي، (أي العمرة) في حين اختار آخرون، كما هو حال رفاقي من الحجاج السنغاليين، البديل الأكثر صعوبة وهو حج القران، أي الإقران بين الحج والعمرة (وَصْلهما)، ومن ثم فإنهم سيرتدون ملابس الإحرام إلى أن تنتهي جميع المناسك.

ركنت إلى الراحة في اليوم التالي، حتى أُشفى من الإسهال الذي أصابني، ومن نزلة البرد التي ألمت بي كأمر لا بد منه، بسبب الإجهاد. وقمت في أثناء ذلك بتحليل برامج التلفاز السعودي، التي لا تختلف في واقع الأمر عن «موعظة الأحد». ولقد أكد أحد الأئمة اليوم على شاشة التلفزيون على أن من ينكر أن عيسى رسول من عند الله ليس بُمسْلم. وقال: إن الإسلام لا يقبل التقليد الأعمى، وإنه ليس هناك إنسان مُعْفى من التفكير. وساق للتأكيد على ذلك تفسيراً مبتكراً غير تقليدي للقول الكريم: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ في آية من سورة النور بالقرآن الكريم: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٣٥]. بالمعنى المراد - حسب هذا التفسير- هو أن النور الجديد الذي أتت به الرسالة يكمل نور العقل الذي كان موجوداً قبل مجيئها ويزيده إشعاعاً.

بعد عشر سنوات من التطور المعماري الرائع، وتطور البنية الأساسية والتخطيط العمراني، لم يعد بمقدور المرء أن يتعرف على جدة. فلقد أصبحت مدينة على الطراز الأمريكي.. مدينة كبرى بمقاييس برلين.. إذ يرى المرء لافتات الشوارع، وأنواع السيارات، والإعلانات المضاءة، ومحطات الوقود، على نحو يوحي بمدينة كولورادو أو مينا بوليس. والغريب في الأمر، أن السواد الأعظم ممن يتجولون في هذه المدينة هم من العرب والهنود والفليبينيين. ولولا ذلك، لنسي المرء أنه في أرض العرب القديمة، وليس في العالم الجديد.

قضيت الأيام المتبقية لي حتى بداية الجزء الثاني من الحج مع أصدقاء أمريكيين

ومغاربة وسعوديين وألمان. وكنت أرتدي دائماً الزي العربي: الجلباب المريح في الملبس، والجلباب المريح جداً في النوم. ففي مثل هذا المناخ، يكون مجرد التفكير في ارتداء حُلَل وأربطة عنق خانقة نوعاً من العذاب.

وأصدقائي من غير السعوديين، هم من العاملين الأجانب في السعودية، الذين يشكلون نحو ٤٠٪ من مجموع عدد سكانها الحاليين (تصل هذه النسبة في دُبي إلى ٩٠٪) ولو حدث أن أمسك الأجانب بزمام الأمور في هذه المنطقة، فلن يكون ذلك أول مرة.

ففي العصر العباسي، تمكن المرتزقة الأتراك من امتلاك زمام الأمور. وربما يكون هذا ما حدا بالسلطات لأن تمنع الكثير من العاملين الوافدين من اصطحاب عائلاتهم، مع سهولة ترحيل أي منهم خارج البلاد. وربما يفسر ذلك مايشعر به العامل الأجنبي، حتى المسلم، من فقدان للأمان. ولقد لمس Carten Niebuhr، عندما وصل إلى جدة في ١٢ من نوفمبر عام ١٧٦٢م، وجود كثير من الوثنيين الهنود في أرض العرب، أو بالأحرى في اليمن، وقال في لهجة تذكرنا بحديث ممثلي منظمة العفو الدولية: «لا يسمح لهم باصطحاب نسائهم، ولذلك يفضلون العودة إلى أوطانهم بعد تكوين ثروة»[(١)].

ومع ذلك، فإن هذا أمر يسير في بلد يقل فيه ثمن لتر البنزين عن ثمن زجاجة مياه معدنية، وحيث المياه والكهرباء والاتصالات الهاتفية الداخلية خدمات مجانية.

أوصلني صديق بدوي في سيارته الكاديلاك إلى المسجد لصلاة العشاء. وما إن

(١) Carten Niebuhr: «وصف الرحلات إلى الجزيرة العربية، وبعض البلدان المجاورة». زيورخ (١٩٩٢م)، ص ٣١٨.

انتهينا من الصلاة، حتى بدأ حاج يمني يشكو من أن زوجته هربت منه ومعها النقود وجواز سفره. وسرعان ما امتدت يد كل فرد إلى حافظة نقوده. وهكذا استفاد الزوج المخدوع بالحق الأصيل في الإفصاح عن المشكلات الشخصية في المسجد.

وكان لقصة التضحية، أي استعداد إبراهيم للتضحية بابنه الوحيد، امتثالاً لأمر الله، واستعداد الابن المطيع لهذه التضحية-أثر كبير. فالامتثال التام والتوكل على الله ركن رئيس في الإسلام، ولذلك يبلغ الحج ذروته في الاهتداء بهذا الحدث، إذ يقوم كل حاج في نهاية الحج بنحر فدية أو أضحية، اقتداء بأن الله فدى ابن إبراهيم بكبش: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾ [**الصافات**: ١٠٧]. وليس من المحتم أن يقوم الحاج نفسه بذبح الأضحية. لذلك، قمت في أثناء تجوالي في المدينة بإيداع ٢٨٠ ماركاً ألمانياً بأحد المصارف، ثمناً لخروفين حددت المستفيدين منهما، وهم مسلمو البوسنة. وفي يوم عيد الأضحى، سيقوم نحو عشرة آلاف جزار، جيء بهم من أقطار العالم الإسلامي كافة، لذبح نحو مليون من الأضاحي، من بينها خروفاي.

ولقد كنت واثقاً من أن لحمها سيرسل مجمداً إلى سبليت في الأيام التالية.

كنت في المساء أنظر دوماً إلى ألوان نافورة المياه المتغيرة عند بحيرة جدة، التي يبلغ ارتفاع مائها ٢٦٥ متراً. وهي من معالم جدة الحديثة.

كنت متشوقاً إلى ذروة الحج. وإياك والمرض قبل يوم عرفة. والحج - كما يعلم الجميع - فرض على من استطاع إليه سبيلا: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [**آل عمران**: ٩٧]. فهو فريضة على من تسمح له حالته

الصحية، ويفيض ماله عن حاجة أهله وجيرانه. إذ لا يجوز لمسلم أن يحج إذا كان جاره في حاجة إلى مال. وبالرغم من ذلك، يبيع بعض الفلاحين -عندما تتقدم بهم السن - ما يمتلكونه من أرض زراعية هي عماد معيشتهم، ليحجوا.

فالحج ليس فريضة فحسب، بل هو حلم لكل مسلم، والعودة منه هي مفخرته. فهو يستطيع عند العودة أن يجد منزله وقد طُليَ بلون أخضر. ناهيك عن أنه سيحظى بمكانة رفيعة جداً. فلا لقب دكتور، ولا لَقب الحاصل على الماجستير، ولا لقب «سعادة» ولا حتى لقب «أستاذ» تضاهي لقب حاج الذي يُخاطَبُ به.

تحتاج رحلة الحج المُكلِّفة، والخطرة في بعض الأحيان- في عصر الطائرات - إلى ترتيبات روحية وأخرى مادية، وبصفة خاصة بالنظر إلى أن تأشيرات الدخول للحج تخضع لنظام حصص محددة. (ونظراً لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل مسلم واحد على تأشيرة حج، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل المصادفة بطبيعة الحال- أنه لا يمكن توقع أن يكون هناك أكثر من ٤٠٠٠٠ حاج شيعي من إيران على أقصى تقدير). ويجري تجاوز نظام الحصص المشار إليه بوساطة العمال الأجانب الذين يعملون في السعودية، ولا يمكن تحديد عددهم بدقة. فليس هناك حائل دون توجههم إلى مكة حاملين زجاجة ماء وقطعة من الورق المقوى (الكرتون) لاستخدامها بديلاً للسرير، ومن ثم فإنهم يرفعون عدد الحجاج إلى مايزيد على المليونين.

يدعو القرآن الكريم المقبل على الحج إلى أن يراعي آداب الحج، فعلى المحرم أن يتنزه عن مباشرة النساء، وعن المعاصي من السباب وغيره، وعن الجدل والمراء مع

رفقته في الحج، وعليه أن يجتهد في فعل الخير: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [**البقرة**: ١٩٧].

لقد قرأت وصفاً تاريخياً للحج من القرن التاسع عشر. قرأت لريتشارد بيرتون Richard Burtons في كتابه الصادر في جزأين عام ١٨٥٣م وصفًا لرحلة حج إلى المدينة ومكة. وقرأت «رحلة حج إلى مكة» لـ Hanrich Von Maltzan (١٨٦٠م)، وفي وصف رحلة السويسري المسلم من مدينة بازل العريقة Johann Ludwig Buckhrdt (١٨١٤)، والذي عرف بالشيخ إبراهيم بن عبدالله بعد أن أعلن إسلامه. ودرست إلى جانب ذلك إرشادات حديثة مفيدة، مثل «دليل المرء للحج والعمرة» الصادر في السلسلة الألمانية «السفر اليوم».

وكان أهم شيء فيما يتعلق بالإعداد الروحي هو دراسة آيات القرآن المتفرقات عن الحج، وبصفة خاصة في السورتين ٢ (سورة البقرة) و ٢٢ (سورة الحج)، وكذا حفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج. وساعدني كتاب أحمد فون دنفر -الجامع على نحو مكثف للقرآن والحديث- كثيراً في ربط مناسك الحج ظاهرياً وباطنياً، مادياً وروحياً، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معاً، إذ إن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط أو الجسد فقط. فالمسلم في صلاته، وفي صومه، وفي نحره للأضحية، وفي حجه ليس حاضراً بروحه وعقله وقلبه فقط، وإنما بلحمه ودمه أيضاً؛ فهو إما أن يكون هو كله حاضراً وإما ألا يكون حاضراً البتة. وهذا ناتج عن «التوحيد» بوصفه مبدأً جامعاً من منظور إسلامي.

ترقباً للأيام المشهودة، جلست في حجرتي بالفندق في جدة أطالع ما حملته معي من مطبوعات عن الحج، ومن بينها بعض سطور للأخ أحمد تقول: «ألا يمكننا القول إن الإحرام يشير إلى الموت، وإن الطواف يسلم المرء إلى الله؟ والسعي... أليس السعي إرهاقاً وتعباً؟ أليست زمزم هي الحياة والكينونة؟ ويوم عرفة... ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة؟ والمزدلفة... أليست هي الظلام الذي يسبق اليوم الجديد؟ ومنى... ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية؟ وخلع ملابس الإحرام بمنى... ألا يعني حياة جديدة؟ ورمي الجمرات... ألا يرمز لكفاح مدى الحياة ضد كل ما هو شر؟ ولكن الله هو محور الحياة...».

ينطلق صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت منادياً إلى صلاة العصر. ويجيء دوري لأرفع أذان الإقامة في مسجد الفندق الذي راح يمتلئ رويداً رويداً بالمصلين. ورحت أردد باللغة العربية ما ردده بلال أول المؤذنين قبل ١٤١٣ سنة قمرية، ولكن بصوت أضعف من صوته. وطلبنا من رجل من المالديف ذي بشرة داكنة جداً أن يؤمنا في الصلاة، فاستجاب لطلبنا على الفور.

لاحظت، ونحن مجتمعون حول مائدة العشاء، أنه لا يبدو على أحد منا أن لديه شهية للطعام. والسبب في ذلك هو ترقبنا للانتقال في الغد، وهو ثامن أيام ذي الحجة، من مكة إلى منى، حيث محل إقامتنا الأساسي في الأيام القادمة. ولم نذق ليلتها طعم النوم. وفي صباح اليوم التالي، تجمع القسم الأعظم منا - ونحن نرتدي ملابس الإحرام - في بهو الفندق من الساعة الخامسة صباحاً.

توقفنا بمكة لنؤدي طواف القدوم حول الكعبة مرة أخرى. وكان الطواف هذه المرة تحت الشمس الحارقة، فدفع كثيراً من الحجاج إلى محاولة الاحتماء مثلي بالمظلات، وهو ما كان ينطوي في مثل ذلك الزحام على خطر إلحاق أذى

بالآخرين. وفي ظل هذا الزحام، كان الطائفون لا يكادون يتقدمون خطوة إلى الأمام في فناء المسجد الفسيح. ولذلك، توجهت إلى الطابق الأعلى حيث يزداد نصف قطر دائرة الطواف، ولم يكن بوسعي إلا ذلك. وطواف الكعبة هنا يعني أن يقطع المرء مسافة ٥,٦ كيلو مترات في حرارة تصل إلى ٤٤ درجة مئوية. ومع ذلك، لا تأخذ المرء شفقة بنفسه، حيث يهون كل شيء على الحاج. ولقد كان جاري في الطواف يحمل ابنه على كتفيه مسافة الطواف بأكملها.

النظر من هنا إلى أسفل يكاد يكون كالتنويم المغناطيسي. والمشهد شديد الجمال. فالكعبة تبدو مركزاً ثابتاً لا يتحرك لأسطوانة تدور ببطء وفي سكون تام في اتجاه مضاد لاتجاه عقارب الساعة. ولا يتغير هذا المشهد إلا عند الصلاة، حيث تصير الكعبة مركزاً لدوائر عديدة متحدة المركز، تتكون من مئات الآلاف من أجسام ناصعة البياض لأناس يرغبون في شيء واحد ويبحثون عن شيء واحد، ويفعلون شيئاً واحداً، رمزاً لتسليم النفس إلى بارئها. ويحيط اليوم بفناء المسجد، الذي تتوسطه الكعبة، عدة طوابق من الرخام الأخضر اللون، ويحيط بالكعبة سبع مآذن مقامة على الطراز الهندي - الإسلامي، مثلما يحيط الإطار بالجوهرة.

كان لا بد من أن أنتزع نفسي من هذا المشهد لأواصل سفري إلى منى بالسيارة، في رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة لقطع خمسة كيلو مترات. ومنى هي «نقطة الانطلاق» إلى يوم عرفة.. وما أدراك ما عرفة؟! يقول الرسول ﷺ: «الحج عرفة».

وفي التاسع من ذي الحجة، تنقل حوالي ٥٠ ألف حافلة، ما يزيد على المليوني حاج إلى عرفة، عبر شوارع قليلة موازية لمنى أو لمكة، لمسافة تتراوح بين ١٠ أو ١٥ كيلاً. وتسبب هذه الحافلات فوضى في المرور تعاني منها هي نفسها، وهي فوضى جديرة بأن تدون في موسوعة الأرقام القياسية.

يحاول بعضهم أن يقطع المسافة إلى عرفة سيراً على الأقدام، إلا أن هذا لا يعدُّ بديلاً مناسباً، نظراً لارتفاع درجة الحرارة بشدة منذ الساعة الثامنة صباحاً. وأرى رجلاً يسعى مع أبيه المسن إلى بلوغ عرفات، وهو ينهار بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية.

عند وصولنا إلى مدينة الخيام المقامة حول جبل عرفات، كان الهواء يلفح الوجوه من شدة الحرارة التي جاوزت الخمسين درجة مئوية في الظل، وتزيد على ٦٠ درجة مئوية في الشمس، وليست هناك نسمة هواء منعشة. فالشمس شديدة القسوة، والمرء يعاني صعوبة بالغة في التنفس. وكل حركة يترتب عليها إحساس بالتعب. وكان لا بد لي من أن ألاحظ في أثناء انتظاري أمام الحمام، أن الأقدام الألمانية تحترق خلال بضع دقائق في درجات الحرارة المرتفعة على هذا النحو. ولذلك، التجأت في أوقات اليوم الأشد حرارة إلى خيمة صغيرة تقاسمتها مع حاج يعمل أستاذاً بجامعة جورج تاون في واشنطن. وكان الشيخ نحناح الجزائري يقيم في الخيمة المجاورة لخيمتنا.

وكان يوماً طويلاً رائعاً.. كان يوماً للتأمل وللسلام.. يوماً للصلاة، وللأحاديث القيمة.

لم أكن، منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية في سنوات الصبا، قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلي الباهر. فلا شيء يوم عرفة سوى مناجاته. وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك.. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات.. ملايين من الناس يتشحون بأكفان، ويتركون في هذا اليوم كل شيء وراء ظهورهم.. فوجودهم اليوم مكرس لله

وحده. . يتوقعون موتهم. . يصلون ويتضرعون في خشوع ويقين لم يحدثا من قبل، ولن يحدثا في الغالب من بعد.

ففي هذا المكان، ألقى محمد ﷺ قبل وفاته بأسابيع قليلة - في عام ٦٣٢ ميلادية - خطبة تقرأ كل عام في ذات اليوم، وذات المكان. لقد خاطب المسلمين في ذاك اليوم قائلاً: «أوصيكم بالنساء خيراً. . .» وأنهى خطبته قائلاً: «إني تارك فيكم - ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتابَ الله وسنتي. وإني مسائلكم يوم القيامة فيما أنتم فاعلون». ووفقاً للرواية، أجابه الحاضرون: «نشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة». وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومئتي ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة.

وفقاً لشعائر الحج، ينتقل الحجاج بعد غروب الشمس إلى المزدلفة التي تقع على بعد ٧ كيلو مترات من عرفة. وفي أثناء ذلك، يحدث الكثير من الهرج والمرج، وبسببه فقدت أنا وأستاذي حافلتنا، ورحنا نبحث دون جدوى عن مكان شاغر في مئات الحافلات. . وإذ بي ألمح وزير الصناعة المغربي عزماني، الذي تربطني به علاقة صداقة، وهو يلوح لي وسط أكثر من مليونين من البشر. ولقد قوّى ذلك من يقيني بأنه ليس هناك مصادفة حقيقة في دنيا الله. وهكذا أصبحت، مؤقتاً، عضواً غير رسمي في بعثة الحج المغربية الرسمية. وفي بادئ الأمر، كان هناك حث على الإسراع، ولكننا جلسنا بعد ذلك نتصبب عرقاً في الحافلة مدة ثلاث ساعات قبل أن تتحرك بسبب الزحام.

يتحرك جميع الحجاج الآن مرة أخرى في اللحظة نفسها، متجهين صوب هدف واحد. وتتدخل شرطة المرور، ولكنها تزيد من فوضى المرور. . ويحاول

بعض الحجاج قطع المسافة سيراً على الأقدام عبر الجبال السوداء التي تميزهم ملابسهم البيضاء من أحجارها.

بلغنا المزدلفة نحو الساعة الحادية عشرة مساء، بسبب كثرة التوقف في الطريق، ونحن نشعر بآلام في ركبنا. وفيها أمّنا إمام من الرباط لصلاتي المغرب والعشاء جمعاً على الصخور التي سنجمع منها ٤٩ حصاة، استعداداً لرمي الجمرات في اليوم التالي. وكنا قد وعدنا بطعام إلا أنه كان لا بد لنا من أن نتحرك قبل مجيئه. ولم آسف لذلك كثيراً، إذ اعتدت في أثناء أيام الحج أن أكتفي بقليل من لحم الدجاج، ومن البازلاء، وتفاحة وثمرة موز. ولقد كان شرب الماء هو الأهم. ولحسن الحظ لم نعان على الإطلاق نقصاً في مياه الشرب، فالمسؤولون السعوديون يوزعون في أثناء الحج ٨٠ مليون قارورة من البلاستيك تحوي كل منها لتراً من مياه الشرب، كما يقومون عند كل تقاطعات الشوارع الكبيرة بإلقاء أكياس تحتوي على عصير الفاكهة إلى هذا الحشد الكبير من الحجاج. ولذلك، لم أشعر بحاجة إلى زادي من الكوكاكولا.

وصلت حافلتنا في الساعة الثانية صباحاً إلى منى، قريباً من موضع رمي الجمرات. . ذلك الرمي الذي يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه، وفي العالم أيضاً. واقتربت من العمود، حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط، مع احتفاظي بمسافة تحميني من التعرض لوابل من حصى الحجاج من الخلف. إنه موقف صعب حقاً، لأن بعضاً من البسطاء ينتابهم شعور بأن في مقدورهم أن ينالوا من إبليس مرة واحدة في حياتهم، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات.

وتجمع حول حافلتنا مجموعة من الصبية يحملون - كما توقعت من قبل -

مقصات لكي يقصوا لكل منا خصلة من الشعر في مقابل ثلاثة ريالات، ما لم نكن نرغب في حلق الرأس تماماً. ومع أنه كان مسموحاً لنا أن نخلع ملابس الإحرام، فقد هرعنا إلى مكة قبل الشروق. ولم نكن بحاجة إلى إقناع سائق الحافلة، الذي أمضى الليل ساهراً، بأن يحملنا إلى مكة، إذ كان هو نفسه يرتدي ملابس الإحرام. وبعد وصولنا إلى مكة، طفنا للمرة الثالثة حول الكعبة طواف الإفاضة. وكان الزحام في هذه المرة أشد من ذي قبل، إذ كان عدد الطائفين فيها لا يقل عن مئتي ألف حاج. ولذا استغرق مني الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ساعتين حافلتين بالإرهاق.

الساعة الآن هي الرابعة والنصف صباحاً. ولقد حان الآن موعد صلاة فجر يوم عيد الأضحى، عاشر أيام ذي الحجة، بالحرم المكي. وسوف أؤديها، بآخر ما تبقى لي من قواي، مع ٨٠٠ ألف مسلم. وبالنظر إلى فخامة الصوت وكمال القراءة، يعدّ مؤذنو الحرم المكي وأئمته صفوة الصفوة. فأذانهم نداء فني رائع.. وقراءتهم للقرآن مناجاة مسموعة. ومن حسن الحظ، أن يسمح الحنابلة السعوديون بهذا البعد الجمالي للصلاة، على عكس ما يفعله المالكيون في شمال إفريقيا. فهذا الجمال ينقل حاجاً ساهراً مرهقاً مثلي إلى عالم خال من التعب.

أخيراً، عدنا بعد الساعة السادسة صباحاً إلى بيت ضيافتنا في منى، بعد أن قضينا ٢٦ ساعة على أقدامنا متأثرين عاطفياً وبدنياً. وتعانقنا أنا ورفاقي في الحج مرددين: حجاً مبروراً، وحجاً مقبولاً إن شاء الله. وهنأني الشيخ نحناح في سعادة بوضعي الجديد. وعدت إلى غرفتي حيث خلعت أخيراً ملابس الإحرام- لهذه المرة- واستلقيت في سريري ملتهب العروق. وحمدت الله أن منحني القدرة

على أداء فريضة الحج، داعياً أن يتقبلها مني. ثم رحت في نوم عميق، لم يزعجني فيه ضجيج صوت جهاز التكييف المرتفع.

بينما كان المنهكون أمثالي يحاولون استعادة قواهم في يوم عيد الأضحى، كان حجاج آخرون- ممن يتمتعون بقدرة أكبر على الاحتمال - ينحرون الأضحية أينما شاؤوا. للحاج أن يأكل جزءاً صغيراً من لحم الأضحية. أما القسم الأكبر منها، فيوزعه على المحتاجين من الحجاج. ويعلق الهيكل العظمي في الشمس إلى أن يجف، ويتم ذلك أحياناً خارج عربات خشبية. وللمرء أن يتخيل الرائحة.. لا، لا يمكن ذلك إلا لمن خبرها فعلاً.

طرقت - أكثر من مرة- باب غرفة جاري القادم من واشنطن لكي أطمئن عليه، لعلمي أنه كلف نفسه ما لا طاقة له به. ولقد طلب مني بالفعل أن أقوم عنه بما تبقى من رمي الجمرات. وهو أمر مسموح به بالنسبة لفريضة الحج بأكملها، إذ يجوز أن تؤدى بالإنابة إذا كان الإنسان غير قادر على أدائها بنفسه.

كنت مدعوّا في ثاني أيام عيد الأضحى - ضمن ١٥٠ حاجاً من أنحاء العالم كافة، من بينهم سلطان بروناي، وأحد أبناء الرئيس الإيراني رفسنجاني - إلى قصر الملك فهد بن عبدالعزيز بمنى. وكان العاهل السعودي قد وجه في ذلك العام دعوة للحج، وليس للغداء فقط، إلى ١٣٠٠ مسلم من الاتحاد السوفيتي السابق. وجاء مجلسي بين الكاتب المصري أنيس منصور، والقاضي الأعلى في باكستان محمد حفظ الله، الذي أخبرني أنه لم يصادق على الإطلاق على حكم بقطع يد سارق. وقد أتيح لنا وقت طويل للحديث، مراراً وتكراراً، عن الإسلام، تأكيداً على أن الحج هائل للمسلمين كافة.

ظهر جلياً في أثناء حديثي مع الملك أنه يعرف الكثير عني. وكانت دعوته لي قد فسرت على أنها رد على حملة التحريض ضدي في ألمانيا.

طبقاً لآداب الطعام العربية، تقدم الأطعمة كلها في وقت واحد، بحيث تكون في متناول الجميع، حتى لتكاد المناضد أن تتقوس. ومن هذه الآداب أن يأكل المرء بسرعة، ويتحدث قليلاً، وينصرف إذا ما شبع، ويبقى الملك إلى أن ينصرف الجميع.

في مساء اليوم نفسه، حاولنا أنا والوزير عزماني اختراق الشوارع التي تفوح منها رائحة كريهة، والمكتظة بالناس، بهدف الوصول إلى حيث الجمرات لرميها للمرة الثانية، مستعينين بالشرطة. كنا نضع مناديل معطرة على الأنف والفم. فمخلفات الحجاج الذين يفترشون أسفلت الشوارع، ومحركات السيارات الدائرة باستمرار لتشغيل أجهزة تكييفها، تجعل الطريق محل انتقاد شديد من حماة البيئة.

وهؤلاء الحجاج الذين يفترشون الأسفلت هم من الحجاج الأجانب، الذين يحجون بدون مطوف، وهم يمارسون وجوداً غير قانوني، ولكنه وجود حقيقي جداً. ولقد وضعت امرأة في هذا اليوم طفلتها على ما تفترشه من ورق.

في اليوم الثالث (١٣ يونيو)، وهو آخر أيام عيد الأضحى، توجهت بمفردي بعد صلاة الفجر مباشرة لرمي الجمرات لي ولزميلي. وكان الحجاج قد بدؤوا ينهضون من فراشهم الذي يفترشونه في الشارع. وكان هؤلاء يستخدمون

مخزونهم القليل من الماء للوضوء في المقام الأول (انظر فصل: «خمس مرات كما أمرنا»). وكان بعض الباعة الجوالين يبدؤون عملهم أيضاً. ومزج الحج بالتجارة أمر مسموح به دائماً. فبعض الحجاج يمولون رحلة عودتهم إلى أوطانهم من حصيلة ما باعوه من منتجاتهم الوطنية، من حلي من العاج وفضيات وأقمشة، ويمر بي أحد الحجاج الأتراك، ويسألني باقتضاب: أين الشيطان؟ وكأنه ينبغي على الجميع أن يعلم أين هو، بل وأن يتحدث التركية أيضاً! ولقد أرشدته في أدب شديد، وباللغة التركية، إلى العامود الثالث (الجمرة الثالثة) التي سنرميها اليوم. ولم يكن باستطاعتي قبل اليوم أن أحدد مكان الشيطان بهذه الدقة!

في اليوم التالي، وفي طريق عودتنا من منى إلى جدة، طفنا في مكة طواف الوداع حول الكعبة. وكان المسجد قد امتلأ حتى آخره، إذ كنا قد وصلنا إليه وقت صلاة العصر. وفي هذه المرة، طفت حول الكعبة فوق السطح على الرغم من عدم قدرة القدمين على احتمال سخونة السطح الملتهبة إلا لثوان معدودات. ولقد خلْتُ نفسي مثل دب يحاولون تعليمه الرقص على سطح من صفيح ساخن. ومع ذلك، جلَست فيما بعد مدة طويلة في الشرفة للتملي من صورة هذا المسجد ذي الجمال المبهر لحفظها في الذاكرة!

لاحظت يوم ١٦ من يونيو وأنا أسلم جواز سفر الحج، استعداداً للعودة بالطائرة إلى الدار البيضاء، أن المسؤولين يبدون سعداء كلما غادر حاج البلد راضياً. ولقد اتجهت الطائرة الجامبو مباشرة، وفي خط مستقيم إلى تونس. وبذلك ظل اتجاه القبلة ثابتاً طول رحلة الطائرة، فمكنّ هذا المضيفين من أداء

الصلاة في ممرها . ولقد وقع اختياري على عدد مجلة «تايم» الصادر في ١٥ من يونيو لكي أقرأه في أثناء رحلة الطائرة. وكان يحتل غلاف هذا العدد صورة لأحد المساجد، وعنوانه الرئيس هو: «إسلام. . هل يجب أن يخاف العالم؟».